منهجية البحث في التفسير المقارن
– دراسة نظرية تطبيقية على لفظة "عسعس"–.

Research Methodology in Comparative Interpretation
- Applied Theory On the word " Asas "

د. هشام شوقي[1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–
h.chougui84@gmail.com

تاريخ الوصول./ :2019/04/25 القبول: 2019/06/19 /النشر على الخط: 2020/01/15

Received: 25/04/2019 / **Accepted**: 19/06/2019 / **Published online** : 15/01/2020

ملخص:

يتحدث هذا المقال عن المنهجية العلمية التي يتبعها الباحث في كتابة موضوع متعلّق بالتفسير المقارن، وقد جمعت فيه بين الناحيتين النظرية والتطبيقية؛ **فأما في جانبه النظري**: فقد عرّفت بالتفسير المقارن، وبيّنت الخطوات المنهجيّة التي ينبغي أن يمرّ بها الباحث فيه؛ من مرحلة اختيار موضوع المقارنة إلى مرحلة بيان القول الراجح من الأقوال فيها، **وأما في الجانب التطبيقي**: فقد طبقت تلك الخطوات مرتبة على لفظة "عسعس" في سورة التكوير، وذلك رجاء أن يفتح هذا المقال طريقا –ولو يسيرا– لمن أراد أن يلج باب المقارنة بين أقوال المفسرين .

الكلمات المفتاحية: "منهجية البحث" ، "التفسير المقارن" ، "عسعس" .

Summary :

This article discusses the scientific methodology followed by the researcher in writing a topic related to comparative interpretation, which was collected between both theoretical and applied; either theoretical: it was known comparative interpretation, and showed the methodological steps that should pass the researcher; To the stage: the statement of the most correct, but on the practical side: these steps were applied to the word "Assas" in Surat al-Takwir, so please open this article a way - or easy - for those who wanted to find a comparison between the sayings of the interpreters .

Keywords:

"Research Methodology", "Comparative Interpretation", " Asas"

[1] المؤلف المرسل: هشام شوقي الإيميل: h.chougui84@gmail.com

مقدمة:

توسعت الدراسات القرآنية في العصر الحديث بشكل ملفت، ولم يتلق القبول منها إلا ما كان متوافقا مع المنهجية العلمية للمجال الذي كُتبت فيه تلك الدراسة، ومن أهم مجالات الدراسات القرآنية التي اتجه الباحثون للكتابة فيها في هذا العصر وقُرِّرت كمقاييس للطلبة في أقسام التفسير وعلوم القرآن: الدراسات التفسيرية المقارنة، ولا يخفى مالهذه الدراسات من الدقة لأن الباحث بنصِّب نفسه حَكَما بين من قارن بينهما ، لذلك كان لا بد أن تنضبط الدراسة المقارنة بمنهجيّة علميّة محكمة تُتَّبع فيها خطوات علميّة مرتّبة ، وهذا حتى تكون نتائجها نتائج دقيقة ويكون التحليل والنقاش فيها منطقيّا .

ومن هذا المنطلق استعنت بالله تعالى في محاولة تسطير منهجية علمية ذات خطوات مرتَّبة تُكتب وفقها الدراسات المقارنة في التفسير لتكون النتائج صحيحة، **وانطلقت في ذلك من الإشكالية الآتية:** ما هي الخطوات المنهجية التي يتتبعها الباحث في التفسير المقارن ؟ .

وقد جاء هذا المقال بعنوان "منهجية البحث في التفسير المقارن– دراسة نظرية تطبيقية على لفظة "عسعس"-. **ليحقق هذا الغرض المنشود** وهو: بيان المنهجية العلمية التي يتبعها الباحث في التفسير المقارن، كما أنني جمعت فيه بين الناحيتين النظرية والتطبيقية ليكون أقرب للفهم وأسهل للتطبيق، ولذلك فقد عرَّفت بالتفسير المقارن، ثم اجتهدت في تعديد الخطوات المنهجية التي يمر بها الباحث فيه، وختمت بذكر نموذج تطبيقيّ طبّقت عليه الخطوات النظرية السابقة، وهذا كلّه وفق خطة علمية تضمنت ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: تعريف التفسير المقارن .

المبحث الثاني: منهجية (خطوات) البحث في التفسير المقارن .

المبحث الثالث: مثال تطبيقي على لفظة "عسعس" .

وتفصيلها كما يلي:

المبحث الأول: تعريف التفسير المقارن:

يتألف مصطلح (التفسير المقارن) من جزأين مركبين تركيباً وصفيًّا، لذا فإنّنا نعرّف كلّ جزء منهما لوحده، ثم نعرّف المصطلح المرّكّب منهما كَعَلَمٍ على هذا العلم القائم بذاته .

أما الجز الأول: وهو التفسير، ففي اللغة هو مأخوذة من مادة "ف س ر" التي يدور معناها حول البيان والإيضاح، ومن ذلك قولهم: فسّرت الحديث: إذا بيّنته وأوضحته[1] . وقد اختلف علماء العربية في أصل اشتقاق هذه المادة "ف س ر"؛

فذهب بعضهم إلى أنها مشتقة من "الفسر" وهو: "البيان وكشف المراد من اللفظ المشكل" ، وإنما بنوه على التفعيل فقالوا: التفسير للدلالة على التكثير، فكأن المفسر يتتبع سور القرآن سورة بعد سورة وآية بعد آية [2] .

[1] ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة، حرف الراء، باب الراء والسين مع ما بعدهما من الحروف (2/ 718) .

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، حرف الراء فصل الفاء (5/ 55) ، والزركشي، البرهان في علوم القرآن (2/ 147) .

وذهب آخرون إلى أنه مأخوذ من "التَّفسِرة" وهي: البَوْلُ الذي يُسْتَدَلُّ به على المَرَضِ ويَنْظُرُ فيه الأَطِبَّاءُ فيَسْتَدِلُّونَ بِلَوْنِه عِلى عِلَّةِ العَلِيلِ[1]، فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية ومعناها وسبب نزولها .

وقال بعضهم هو مقلوب من "سفر" ، وهو كَشْفُ الغِطَاءِ ويَخْتَصّ ذلك بالأَعْيَانِ، فيقال: سَفَرَت المرْأَةُ إذا كَشَفَتْ عن وَجْهِها النِّقَابَ [2] .

وأما التفسير في الاصطلاح: فقد عرّفه العلماء بتعريفات من أحسنها وأقربها لمعناه:

1–تعريف أبي حيان الذي قال: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك"[3] .

2– **تعريف الزركشي** حيث قال: "علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه" [4] .

3. **تعريف د: حسين الذهبي**، الذي عرّفه بقوله: "علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البَشرية، فهو شامل لكلّ ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد"[5] .

فهذه تعريفات متقاربة المعنى والجامع بينها هو: محاولة المفسر كشف مراد الله تعالى من كلامه بحسب طاقته .

أما الجزء الثاني: **فهو المقارن**، وهو في اللغة لفظة مأخوذة من مادة "ق ر ن" وهي لفظة لها أصلان صحيحان :

فالأصل الأوّل: هو جَمعِ شيءٍ إلى شيء، والقِران: الحبلُ يُقرَن به شيئانِ. والقَرَن في الحاجبين: إذا التقَيا، والقَرْن: مثلُك في السِّنِّ. والقِرَان: أن تقرن بين تَمرتين تأكلهما. والقِرانُ: أن تَقْرِن حَجَّةً بعُمرة. وقَرِينةُ الرَّجُلِ: امرأتُه .

والأصلُ الآخر: شيءٌ ينْتَأ بقُوّة وشِدّة، كالقَرْن للشّاةِ وغيرها، وهو ناتئ قويّ، وبه يسمَّى على معنى التشبيه الذَّوائبُ قروناً، والقَرْن: جُبَيْلٌ صغيرٌ منفرد [6] .

أما في الاصطلاح: فالمقارنة تطلق ويراد بها: الموازنة بين الشيئين والجمع بينهما في مكان واحد، وتقابلهما حتى تظهر نقاط التباين والتشابه بينهما [7] .

أما تعريف مصطلح "التفسير المقارن" كمركب وصفي على هذا العلم :

فقد عرفه الباحثون المعاصرون بتعريفات كثيرة متقاربة بينها، من أشهرها:

---

[1] ينظر: الزبيدي، تاج العروس باب الراء مادة "ف س ر " (13/ 323) ، و الأزهري، تهذيب اللغة، أبواب السين والراء (12/ 283) .

[2] الزبيدي، تاج العروس فصل السين المهملة مع الراء، مادة "سفر" (12/ 41) .

[3] أبو حيان، البحر المحيط (121/1) .

[4] الزركشي، البرهان في علوم القرآن (13/1) .

[5] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (1/ 14) .

[6] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ،كتاب القاف باب (قرن) (5/ 76) .

[7] ينظر: إبراهيم الزيات وغيره، المعجم الوسيط، باب القاف (2/ 730)، و إبراهيم المشني، التفسير المقارن دراسة تأصيلية (ص34) .

1–تعريف د: إبراهيم المشني: حيث قال "هو الموازنة بين آراء المفسرين في بيان الآيات القرآنية، والمقارنة بين مناهجهم، ومناقشة ذلك؛ وفق منهجية علمية موضوعية"[1] .

ويلاحظ عليه أنه توسع في ذكر منهج وثقافة المفسر وهذا له مجال آخر، مع أن معرفة ذلك له أثر في معرفة سبب ترجيح المفسر، ولكنّ الباحث لا يتجه ابتداء للمقارنة بين المناهج بل يقارن بين الأقوال ويستعين في ذلك بمعرفته لمناهج أصحابها .

2– تعريف د: روضة عبد الكريم فرعون، حيث قالت :"هو بيان كلام الله تعالى بالراجح من الأقوال التفسيرية المختلفة اختلافًا حقيقيًا معتبرًا في الموضع الواحد بعد الموازنة بينها في ضوء منهجيّة علميّة منضبطة"[2] .

ويلاحظ عليه تقييد المقارنة بكونها في الموضع الواحد وليس في الموضوع الواحد، وهذا لا يصح لأن المقارنة قد تكون بين موضوعين بين مفسرين مثل (آيات رؤية الله بين الطبري والزمخشري) .

3– تعريف د: محمود عقيل العاني: " هو بيان اختلاف المفسرين وآرائهم في معاني النصوص القرآنية ودلالاتها، واستيضاح مناهجهم من فنون ومعارف، ورصد تعدد اتجاهاتهم بالأسباب والدوافع، ومناقشته ضمن منهجية علمية ناجعة، ليتحصل الرأي الراجح من مرجوحه استنادا إلى أدوات الترجيح وضوابطه" [3] .

وعليه نفس الملاحظات المذكورة على تعريف د: إبراهيم المشني .

4– تعريف د: جهاد محمد النصيرات:" الموازنة بين الآراء التفسيرية في ضوء منهجية علمية"[4] .

ثم شرحه بقوله "**الآراء التفسيرية**"؛ لتشمل ما إذا كانت لمفسر واحد في أكثر من تفسير، أو لمجموعة من المفسرين؛ وسواء أكانت لآية، أو أقل، أو أكثر مجتمعة أو متفرقة، فميدانه هو الآراء التفسيرية ومجال عمله فيها .

"**في ضوء منهجية علمية**" يريحنا من قولنا: ضمن ميزان متفق عليه، بعيدًا عن التحيّز والهوى والتعصب وما إلى ذلك .

ولعل هذا التعريف هو أقرب التعاريف لبيان المعنى الدقيق للتفسير المقارن كمصطلح معاصر على علم متخصص .

المبحث الثاني: منهجية (خطوات) البحث في التفسير المقارن:

منهجية البحث في التفسير المقارن هي مسألة اجتهادية تخضع لمعطيات كثيرة، ولذلك فإننا لا نجد منهجية ثابتة تصلح مع جميع المقارنات في التفسير، فقد تختلف هذه المنهجية من موضع لآخر بحسب طبيعة المقارنة، فتختلف مثلا من كونها بين موضوعين عن كونها بين سورتين أو لفظتين أو منهجين أو مفسرين من مدرستين مختلفتين وهكذا، ولذلك فإن جميع ما كُتِب في الخطوات التي يتبعها الباحث في التفسير المقارن إنما هي خطوات تقريبية ترسم الخطوات العامة التي تتبع في المقارنة، و تبقى بعض الخطوات التي قد تغيب أو تتغير من موضع إلى آخر على حسب طبيعة المقارنة .

ولذلك فإنني وبعد استقرائي لما كتب في هذا الموضوع حاولت رسم منهجيّة اشتملت على الخطوات الآتية:

---

[1] إبراهيم المشني، التفسير المقارن دراسة تأصيلية (ص 148) .

[2] روضة عبد الكريم فرعون، التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق (ص43) .

[3] إبراهيم المشني، التفسير المقارن دراسة تأصيلية (ص88) .

[4] جهاد محمد نصيرات، التفسير المقارن –إشكالية المفهوم– (ص56) .

أولا: تحديد الموضوع:

وهذه الخطوة هي أهم خطوة في البحث، حيث يحدد فيها الباحث طبيعة الموضوع الذي سيعقد فيه المقارنة التفسيرية ويعطي نظرة عامة عما سيتناوله في بحثه ، ولا تأتي هذه المرحلة من فراغ وإنما تأتي بعد أن يجري الباحث استقراء في كتب التفسير حول الموضوع الذي اختاره هل تصلح المقارنة فيه أولا، إذ ليس كل موضوع أو موضع في القرآن يصح أن يطبّق عليه منهج التفسير المقارن .

ويمكن أن تكون هذه المقارنة بين مفسرين أو أكثر في آية واحدة أو آيات متعددة مرتبة في السور، أو آيات تتعلق بموضوع واحد فقهي أو عقدي أو تربوي، كما يمكن أن تكون المقارنة بين مفسرين في سورة كاملة .

وينبغي أن يكون الموضوع الذي يختاره الباحث له دافع علميّ ومبرّر معرفيّ وليس مجرّد اختيار عشوائي فقط، كأن يقارن الباحث بين أقوال المفسرين في آية قرآنية كثر فيها الخلاف مثل: "آية السيف دراسة مقارنة"، أو يقارن بين مفسّرين من مدرستين عقديتين أو فقهيتين مختلفتين فيبيّن كيفية تفسير كلّ منهما للموضوع القرآني محلّ المقارنة مثل: موضوع "آيات الصحابة بين الطبرسي وابن كثير" أو موضوع "آيات رؤية الله يوم القيامة بين الطبري والزمخشري"، وهؤلاء من مدارس عقدية مختلفة (الشيعة وأهل السنة، المعتزلة)، أو موضوع " آيات الطلاق بين الجصاص والقرطبي" وهما من مدرستين فقهيتين مختلفتين (الأحناف والمالكية)، أو يختار الباحث قضية في الإعجاز العلمي يقارن فيها بين مفسرين أحدهما متقدم والآخر متأخر أو بين مفسرين معاصرين، وهكذا يختار الباحث موضوعا للمقارنة ويحسن الاختيار بعد النظر والبحث .

ثانيا: وضع خطة محكمة:

تعتمد على منهجية علمية واضحة تتناسب مع طبيعة الموضوع الذي ستجرى فيه المقارنة، حيث يقسم الباحث مقارنته تقسيما متناسقا حتى يصل إلى النتائج التي يرجوها من مقارنته [1] .

ثالثا: جمع الأقوال التي ذُكرت في الآية:

وهذا يختلف بين تحديد الباحث لمفسرين محددين أو عدم تحديده، فإن حدّد رجع إلى تفاسير من حدد المقارنة بينهم، وإن لم يحدّد رجع إلى أمّهات التفاسير التي اعتنت بجمع الأقوال التفسيرية في الآية، مثل: "جامع البيان" للطبري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، و "زاد المسير" لابن الجوزي، وتفسير ابن كثير وغيرها ، فيستقرأ الباحث هذه التفاسير ويجمع منها الأقوال التفسيرية المعتبرة التي تستحق النظر ويحرص على الدقة في ذلك، أما الأقوال الواهية التي ليس لها حظّ من النظر في التفسير فهذه يعرض عنها ولا يذكرها، إلا إذا كان ذكرها على سبيل التنبيه على ضعفها .

رابعا: تحليل هذه الأقوال:

وهنا تبدأ شخصية الباحث العلميّة بالظهور في بحثه، حيث لا يكتفي الباحث بمجرد الجمع للأقوال، ولكن يبدأ في تحليل هذه الأقوال وغربلتها ، وذلك وفق المنهجية الآتية:

1 -تصنيف الأقوال التي جمعها إلى أقوال رئيسية حتى تدخل فيها الأقوال الفرعية ولا تكثر فروع البحث، فيجتهد

[1] إبراهيم المشني، التفسير المقارن دراسة تأصيلية (ص181) .

الباحث في إدخال الأقوال الكثيرة تحت أقوال رئيسية ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

2 -نسبة الأقوال إلى أصحابها بدقة وأمانة، فلا ينسب قولا لأحد حتى يتأكد من قوله له، وذلك بالرجوع إلى موطن ذكره، فلا يصح مثلا أن تنسب قولا للطبري نقلا عن ابن كثير وتفسير الطبري موجود متوفر، فإن عدم تفسيره لفقده أو عدم توفره للباحث اكتفى بنسبته إليه بواسطة موثوقة، كأن ينسب قولا لصحابي أو تابعي من تفسير الطبري .

3 -ذكر أدلة القول ما أمكنه ذلك، وهذا يكون باستقراء كتب التفسير خاصة الموسوعية منها، مثل تفسير الطبري، و "مفاتيح الغيب" للرازي، و"البحر المحيط" لأبي حيان، و"أحكام القرآن" للقرطبي، ويمكنه الاستعانة بالتفاسير المعاصرة مثل "روح المعاني" للألوسي، و"التحرير والتنوير" لابن عاشور ، و"أضواء البيان" للشنقيطي. مع التنبيه إلى أن الباحث قد يبذل جهده ووسعه فلا يجد الدليل الذي استدل به من قال بهذا القول في الآية، فحينئذ لا شيء عليه ولا يعاب بحثه بذلك .

4 -إذا كانت الأدلة التي استدل بها المفسر كثيرة فلا حرج من تقسيمها إلى أقسام متناسبة فيما بينها، كأن يقسمها إلى "الأدلة من القرآن الكريم"، "الأدلة من السنة النبوية"، "الأدلة من اللغة العربية"، "الأدلة من النظر"، وفائدة ذلك: سهولة التعامل مع هذه الأدلة من بيان وجه الاستدلال ونقدها وغير ذلك مما سيأتي بيانه .

5 -بيان وجه الاستدلال من تلك الأدلة، ومعناه: بيان كيفية فهم المفسر لهذا الدليل واستدلاله به على القول الذي اختاره، وقد لا يبين المفسر وجه الاستدلال لقوله فيمكن حينئذ للباحث أن يشرح الدليل ويبيّن وجه الاستدلال منه إن كان ظاهرا مع بيان أن ذلك من اجتهاده، كأن يقول "ووجه الاستدلال منه كما ظهر لي أو كما هو واضح ... " .

6 -كما يمكن للباحث في هذه المرحلة أن يناقش الأدلة التي استدل بها أصحابها، أثناء سرده لأدلتهم ويكون ذلك بأحد طريقتين –كلاهما صحيح – وهما:

7 -ذكر الدليل ثم مناقشته مباشرة قبل الانتقال للدليل الذي بعده .

8 -سرد الأدلة جميعا ثم مناقشتها مناقشة عامة أو تفصيلية كما سيأتي في عنصر –مناقشة الأقوال- .

خامسا: تحرير محل النزاع:

والمقصود به بيان المسألة الدقيقة التي اختلف فيها المفسرون والمراد بحثها في المقارنة، وهذا لا يكون إلا بعد جمع الأقوال وعرضها، لأن عرض الأقوال من شأنه أن يظهر النزاع والاختلاف بين تلك الأقوال، فيأتي تحرير محل النزاع ليسلط الضوء عليه، ومن ثَمَّ يبيّن الثمرة المترتبة عليه، وكيف يؤثر هذا الاختلاف على معنى الآية محل المقارنة .

ولا يمكن أن يحرر محل النزاع قبل عرض الأقوال، لأن المطلع على سير البحث لا بد أن يعلم أن هناك نزاعا وخلافا بين المفسرين من خلال جمع أقوالهم في الآية، لا أن يفاجأ بـ (تحرير محل النزاع) وهو لايعلم وجود اختلاف في الآية [1] .

وببيان محل النزاع في الآية ينحصر الخلاف في محلّ ضيّق يمكن للباحث أن يتحكّم فيه ويضبطه .

سادسا: بيان ثمرة الخلاف:

و المقصود بها بيان النتيجة التي ترتبت على الخلاف بين المفسرين، وهل هو خلاف لفظي صوري فقط لا أثر له في المعنى وهو ما يعرف بـ (خلاف التنوع)، أم أنه خلاف حقيقي يترتب عليه خلاف في المعنى وهو ما يعرف بـ(خلاف التضاد).

[1] روضة عبد الكريم فرعون، التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق (ص 61) .

فإن كان الاحتمال الأول فقد كُفي الباحث مؤنة البحث في الآية واكتفى بما وصل إليه وبيّن أن الآية تحمل على جميع الأقوال المذكورة فيها، مثل الخلاف في تفسير لفظة "يحبرون" في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴾ الروم: ١٥، فقد فسرها بعضهم بأنها بمعنى: يسرون أو يفرحون أو يكرمون أو ينعمون، فالمعنى واحد على جميع تلك الأقوال وهو: فوزهم[1] .

وإن كان الاحتمال الثاني (خلاف التضاد) واصل الباحث مقارنته وفق الخطوات القادمة ليصل إلى المعنى الصحيح، مثل الخلاف في تفسير القرء من قوله تعالى ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾ البقرة: ٢٢٨، فقيل: هو الحيض ، وقيل: هو الطهر[2] .

سابعا: بيان سبب الخلاف في الآية:

وهذا يكون بالنظر إلى منشأ الأقوال والأساس الذي بنى عليه المفسر قوله .

ومعرفة سبب الخلاف في الآية يسهّل علينا كثيرا مناقشة الأقوال والحُكم عليها تصحيحا وتضعيفا، فهو الذي يوصلنا إلى القول المستند إلى دليل قوي فيرجّحه، والقول المستند إلى دليل ضعيف فيضعّفه .

كما أن معرفة سبب الخلاف في الآية يُكسب الباحث في التفسير المقارن التثبت وعدم التسرع في ردّ الأقوال التفسيريّة، ويجعله متواضعا عارفا لقدر المفسرين، ليقينه أن ما ذهب إليه المفسرون لم يكن عن هوى – في الغالب– وإنما بذل المفسرون جهدهم لمعرفة معنى الآية وفق مبادئ علميّة موضوعيّة تكشف عن تبحُّرهم في شتى العلوم والمعارف .

وأما عن **أهم أسباب الاختلاف** بين المفسرين فهي[3] :

1– الاختلاف في عودة الضمير، مثل ضمير الهاء في قوله تعالى ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ يوسف: ٢٣ ، فيحتمل: أن يكون الضمير لله تعالى، أو للذي اشتراه[4] .

2– أن يكون اللفظ مشتركا في اللغة، مثل لفظة "عسعس" من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ التكوير: ١٧، فهو يحتمل: إقبال الليل أو إدباره[5] .

3–اختلاف القراءات ، ومنه الاختلاف في قراءة كلمة "هيت" من قوله تعالى ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ يوسف: ٢٣، فقرأها الأكثرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، ومعناها: أنها تدعوه إلى نفسها، وتقول: هلُمَّ لك، وقرأها آخرون: "هئت لك" بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك[6] .

---

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (3/418– 419) .

[2] الماوردي، النكت والعيون (1/ 290) .

[3] وقد ألفت في هذه المسألة عدة رسائل علمية منها: رسالة: أسباب اختلاف المفسرين، محمد بن عبد الرحمان الشايع، اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره ص (36–86)، وسعود بن عبد الله الفنيسان ص(56–280) ص (36–86)، ومقال لأحمد محمد الشرقاوي، اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه .

[4] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 384) .

[5] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (5/ 101) .

[6] تفسير ابن كثير (4/379– 380) .

4-الاختلاف في القول بالنسخ، مثل قوله تعالى ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الروم: ٣٨، فقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فقيل: هي منسوخة بآية المواريث وقيل: محكمة وللقريب في مال قريبه الغني حق واجب[1] .

5-الاختلاف بسبب السنة: وهذا السبب له صور كثيرة، منها: بلوغ الحديث من عدمه، ومنها: تصحيح الحديث أو تضعيفه وغيرها من الأسباب، ومثال ذلك الخلاف في تفسير قوله تعالى﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ التوبة: ١٠٨، فقد اختلف فيه هل هو: مسجد قباء أو مسجد رسول الله ﷺ، استنادا إلى قول أبي سعيد ﷺ الذي قال:" سألت رسول الله ﷺ عنه فقال هو: مسجدكم هذا مسجد المدينة"، فاختلف العلماء في تصحيحه وتضعيفه وعليه اختفوا في تفسير الآية [2] .

6-الاختلاف في الإطلاق والتقييد : ومثال ذلك عتق الرقبة التي وردت مطلقة في كفارة اليمين كما في قوله تعالى ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ المائدة: ٨٩، وقد وردت مقيدة في كفارة القتل كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ النساء: ٩٢، فحمل بعض المفسرين المطلق على المقيد وقالوا: لا تجزئ الرقبة الكافرة ، وأبقى بعضهم المطلق على إطلاقه فقالوا يجزئ عتق أيّة رقبة مؤمنة كانت أو غيرها [3] .

7- الاختلاف في العموم والخصوص: مثال ذلك اختلاف المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ البقرة: ٢٢١، فقيل: يدخل في عمومها الكتابيات لأنهن مشركات، وقيل: بل هو عام أريد به خصوص الوثنيات بدليل قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ المائدة: ٥ [4] .

8-الاختلاف في أوجه الإعراب: مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ المائدة: ٢٦، يحتمل: أن يكون " أربعين " متعلقًا بمحرمة، فيكون التحريم عليهم مؤقتًا غير مؤبد، ويحتمل أن يكون " أربعين " متعلقًا ب {يتيهون} ، فيكون التحريم مؤبّدًا[5] .

9-التقديم والتأخير: ومثاله ما جاء في تفسير لفظة "متوفيك" من قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ آل عمران: ٥٥، فمن المفسرين من ذهب إلى أنه يوجد في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك

[1] الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (4/ 322) .
[2] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (172) .
[3] ابن نور الدين، تيسير البيان لأحكام القرآن (3/ 179) .
[4] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 282) .
[5] ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (2/ 228) .

إليّ ومطهِّرك من الذين كفروا، و متوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا، ومنهم من ذهب إلى أنه ليس في الآية تقديم وتأخير وأن معنى الوفاة: إني مُنيمك ورافعك في نومك، أو إني قابضك من الأرض، فرافعك إليّ [1] .

10- روايات أسباب النزول: ومثاله: الخلاف الذي ورد في بيان الشيء الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ التحريم: 1، حيث اعتمد كلّ مفسر على سبب نزول الآية، فقال بعضهم: هو تحريمه ﷺ أكل العسل على نفسه بعد تناوله له في بيت زينب بنت جحش ﵂، وقال بعضهم: هو تحريم رسول الله ﷺ وطء جاريته: مارية القبطية بعد أن كان يطؤها[2] .

هذه أهم أسباب الخلاف بين المفسرين التي ينبغي للباحث في التفسير المقارن أن يعلمها ليعرف مأخذ المفسرين ومستندهم في أقوالهم فيحسن التعامل مع كلّ قوله بحسبه .

ثامنا: مناقشة الأقوال التي سبق عرضها مناقشة علمية:

وهي مرحلة مهمّة جدّا وحاسمة في الباحث الذي يكتب في مجال التفسير المقارن، وذلك أن هذه المرحلة تحتاج إلى نَفَسٍ علميٍّ في شتى الفنون وتحتاج إلى دقة شديدة في التعامل مع أقوال المفسرين، بحيث يحاول الباحث في هذه المرحلة أن يناقش الأقوال ويحلّلها ويعرض كلاً منها على ميزان التفسير الصحيح، فما كان منها صحيحا قبله وما كان منها مردودا ردّه وبين وجه ضعفه .

وهذه المرحلة لها طرق كثيرة في منهجية مناقشة الأقوال:

فيمكن للباحث، أن يناقش أدلة الأقوال حينما يذكرها منسوبة لأصحابها، فيذكر الدليل ثم يناقشه، أو يسرد الأدلة جميعا ثم يناقشها جملة واحدة، ويمكن له أيضا أن يجعل مناقشة الأقوال "خطوة مستقلة" فيجعل لها عنوانا خاصا يناقش فيه أدلة كل قول على حده .

كما يمكن للباحث في هذه المرحلة أن يقسم مناقشاته للأدلة إلى قسمين:

الرد العام: بأن يناقش الأقوال مناقشة عامة فيذكر ما يُردُّ به عليها ممّا يشترك فيها كلها .

الرد الخاص: وذلك بالردّ التفصيلي على كلّ قول أو دليل، حيث يذكر الدليل ويبيّن وجه الرّدّ عليه .

والمقاييس التي يعتمد عليها الباحث في هذه المرحلة تعرف في مجال الدراسات القرآنية بمعايير القبول والرد، وأهم هذه المعاير التي يحتاجها الباحث ليناقش أقوال المفسرين بها هي[3] :

المعيار الأول: صريح القرآن: وذلك بأن يجد الباحث قولا تفسيريا يتعارض مع آية قرآنية صريحة في نفس الموضوع، فيكون ذلك دليل صريح على ردّ هذا القول وإبطاله لأنه يستحيل أن تتعارض آيات القرآن فيما بينها لقول الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ٨٢، ومثاله: ماجاء في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا

[1] الطبري، جامع البيان (6/455- 458) .

[2] ابن عبد البر، الاستيعاب في بيان الأسباب (3/433- 435) .

[3] ينظر: روضة عبد الكريم فرعون، التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق (ص69-94) وعبد القادر الحسين، معايير القبول والرد (93 وما بعدها) .

ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ الملك: ٥، حيث قيل: بأن النجوم هي الحجج الواضحة القوية الدالة على قدرة الله تعالى، وسطوع البرهان المسكت للمجادل الذي يسمى شيطانا، ولا يمكن أن يفهم منها: أن المقصود من النجوم التي جعلت زينة للسماء أنها تكون قذائف للشياطين، فهذا التفسير مردود على صاحبه لأنه مخالف مخالفة صريحة لقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾ الحجر: ١٦ -١٨ [1] .

المعيار الثاني: الأحاديث النبوية: فكل تفسير خالف السنة الصحيحة الصريحة التي تتعلّق بمعنى الآية يعتبر تفسيرا مردودا إذ لا تعارض بين القرآن الكريم والسنة النبوية، ومثاله: ما قاله رشيد رضا في تفسير قوله تعالى ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ الأنفال: ٩، بأن المدد في الآية هو مدد نفسي معنوي وليس معناه قتال الملائكة معهم[2]، وهذا القول مخالف للأحاديث التي أثبتت قتال الملائكة مع المؤمنين في غزوة بدر والتي منها: حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم بدر **﴿ هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب ﴾**[3] .

المعيار الثالث: الإجماع: فما أجمع الناس عليه لا يمكن مخالفته لأنه صحيح لقوله ﷺ **﴿لا تجتمع أمتي على ضلا ﴾**[4]، ولذلك فإنّ كلّ قول خالف الإجماع فهو قول مردود ، ومثاله: ما جاء عن الحسن البصري في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ المائدة: ٢٧، حيث قال: كانا رجلان من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه . وقد ردّ الطبري هذا القول بأنه مخالف للإجماع الذي انعقد على أنهما ابني آدم لصلبه وفي عهد آدم وزمانه [5] .

المعيار الرابع: قطعيات العقل: والمقصود به الأمور المتعلقة بالعقل المطلق وهو الذي اتفق الجميع عليه لكونه من الأمور البديهية، فما خالف هذا النوع يعتبر تفسيرا مردود لأن صريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول[6]، ومثاله ما ورد عن ابن حزم في تفسير قوله تعالى ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾ الأنبياء: ١٧، حيث ذهب إلى أن الله قادر على أن يتخذ ولدا، وإلا فقد نسبنا له العجز تمسكا منه بالشرط المذكور في الآية[7]، وهذا أمر مستحيل عقلا لذلك فقوله مردود، وقد أجاب ابن كثير على ذلك بقوله :" وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه و زعموه، كما قال تعالى ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ الأنبياء: ١٧، و

---

[1] طاهر محمود يعقوب، أسباب الخطأ في التفسير –دراسة تأصيلية- (113-114) .

[2] رشيد رضا، تفسير المنار (4/ 92) .

[3] رواه البخاري في كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم: 3773 .

[4] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، رقم: 13623 .

[5] الطبري، جامع البيان (8/ 325) .

[6] عبد القادر الحسين، معايير القبول والرد (243 – 245) .

[7] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (2/ 138) .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ الزخرف: ٨١، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم" [1] .

المعيار الخامس: اللغة العربية، وذلك بالانسجام مع قواعدها المعروفة في دلالاتها وأساليبها، فإذا خالف قولٌ تفسيريٌّ تلك القواعد اللغوية فهو قول مردود، ومثال ذلك ما ذكره البيضاوي بصيغة التمريض في تفسير لفظة "أكبرنه" من قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ يوسف: ٣١، حيث قال:" وقيل: أكبرن بمعنى: حضن من أكبرت المرأة إذا حاضت، لأنها تدخل الكبر بالحيض، ... أي: حضن له من شدة الشبق" [2] .

تاسعا: بيان القول الراجح بالأدلة:

وهذه المرحلة تعتبر تاج البحث وختامه، وثمرة جهد الباحث بعد الرحلة العلمية التي خاضها بين أقوال المفسرين، وهي مرحلة مهمة بالنسبة للباحث لأنها تعتبر خاتمة بحثه، فينبغي له أن يتثبت قبل أن يرجح، فإذا رجح فعليه أن يكون متجرّدا للدليل محتكما للموضوعية والحيادية وأن يترك جميع العصبيات المذهبية أو الانتماءات الفكرية، ويجعل الدليل هو قائده فيرجح القول الذي يؤيده الدليل الصحيح الخالي من الاعتراضات .

كما ينبغي أن يعلم الباحث أنه ليس بالضرورة أن يكون ترجيحه تقوية قول وردّ آخر، بل إن الترجيح له صور:

- فيمكن أن يكون باختيار قول من الأقوال المذكورة في تفسير الآية .
- ويمكن أن يكون جمعا بين قولين أو أكثر إذا كانت الأقوال من خلاف التنوع .
- أو يكون قولا جديدا ظهر للباحث ويدور بين ما ذكره سابقا من أقوال المفسرين[3] .

وبهذا يكون الباحث قد أدى مهمته في البحث الذي أقدم عليه، وليس بالضرورة أن يكون ما رجحه الباحث هو الصحيح ضرورة، فقد يخالفه غيره ويستدرك عليه في ترجيحه ويبين ضعف ما رجحه وقوة غيره من الأقوال، وهكذا يبقى مجال التفسير المقارن مجال للبحث والمناقشة بين الباحثين في مجال التفسير المقارن .

وأما عن أهم قواعد الترجيح التي يحتكم إليها الباحث في ترجيحه فهي:

أولا: قواعد الترجيح المتعلقة بالنص القرآني، وأهمها:

قاعدة: لا تصح دعوى النسخ في آية من كتاب الله إلا إذا صح التصريح بنسخها أو انتفى حكمها من كلّ وجه .

قاعدة: القراءة الثابتة لا ترد وهي كآية مستقلة .

قاعدة: اتحاد معنى القراءتين أولى من اختلافه .

قاعدة: معنى القراءة المتواترة أولى بالصواب من معنى الشاذة .

قاعدة: التفسير والإعراب الموافق لرسم المصحف أولى من المخالف له .

---

[1] تفسير ابن كثير (7/ 85).

[2] تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (3/ 161)

[3] روضة عبد الكريم فرعون، التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق (ص67) .

قاعدة: إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل .

قاعدة: لا يُعدل عن ظاهر القرآن إلا بدليل .

قاعدة: تحمل معاني القرآن على أسلوبه ومعهود استعماله .

قاعدة: السياق القرآني مرجح لما وافقه .

قاعدة: ما تأيد بآيات قرآنية مقدم على ما عُدم ذلك .

ثانيا: قواعد الترجيح المتعلقة بالسنة والآثار والقرائن، وأهمها:

قاعدة: إذا ثبت الحديث وكان نصا في الآية فلا يصار إلى غيره .

قاعدة: إذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه .

قاعدة: كل تفسير خالف القرآن أو السنة أو الإجماع فهو مردود .

قاعدة: لا تحمل الآيات على تفصيلات لغيبيات لا دليل عليها .

قاعدة: سبب النزول الصحيح الصريح مرجّح لما وافقه .

قاعدة: تاريخ نزول الآية الثابت مرجح .

قاعدة: فهم السلف حجة على من بعدهم .

قاعدة: تفسير جمهور السلف مقدّم على كلّ تفسير شاذ .

قاعدة: القول الذي يعظم مقام النبوة أولى من غيره .

ثالثا: قواعد الترجيح المتعلقة بلغة العرب، وأهمها:

قاعدة: يحمل كلام الله على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر .

قاعدة: الحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية، والحقيقة العرفية مقدمة على اللغوية .

قاعدة: القول بالترتيب مقدم على القول بالتقديم والتأخير .

قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد .

قاعدة: تصريف الكلمة واشتقاقها مرجِح لما وافقه .

قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قاعدة: توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها .

قاعدة: الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه .

قاعدة: يجب حمل كتاب الله على الأوجه الإعرابية القوية والمشهورة دون الضعيفة والشاذة والغريبة[1] .

المبحث الثالث: مثال تطبيقي على لفظة "عسعس":

[1] حسين بن علي الحربي، مختصر قواعد الترجيح عند المفسرين (30-245) .

وفي هذا المبحث سنرى مثالا تطبيقيا لما سبق بيانه من الخطوات النظرية للتفسير المقارن، وقد وقع اختياري على **لفظة "عسعس"** من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ التكوير: ١٧ - ١٨ .

وقبل الشروع في تطبيق منهجية التفسير المقارن على لفظة "عسعس"، أذكر أولا السياق القرآني الذي وردت فيه هذه اللفظة حتى نعرف المقصود من ذكرها في هذا الموضع بالذات والمعنى الذي أريد تحقيقه منها، وذلك كالآتي:

جاءت لفظة "عسعس" في القرآن الكريم في موضع واحد في سورة التكوير، وذلك في سياق قسم الله تعالى على أن القرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ فهو كلام الله ووحيه، فبعد أن قرّر الله تعالى في سورة (التكوير) عقيدة البعث والجزاء بوصف كامل لأحداثها، وهذا الوصف إنما جاء من طريق الوحي، احتاج الموضوع إلى بيان صحة الوحي والإيمان به، لأنه إذا صح الوحي وآمن به العبد آمن بصحة البعث والجزاء وإلا لم يؤمن، فأقسم الله بأشياء عظيمة على أن القرآن الذي تضمن تلك الأخبار السابق ذكرها إنما هو كلام الله ووحيه، وليس كلام مجنون يقول ما لا يدري ولا قول شيطان رجيم ممّن يسترقون السمع ويلقونه إلى إخوانهم من الكهان، بل هو كلام الله صدقا وحقاً وما يخبر به فهو صدق وحق، فاستفتح الله قسمه بقوله **{فَلا}** أي: ليس الأمر كما تدعون بأن ما يقوله رسولنا هو من جنس ما تقوله الكهنة، ولا مما يقوله الشعراء، ولا هو بكلام مجانين، ولا هو سحر الساحرين، بل إنني أقسم ﴿ بِٱلۡخُنَّسِ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾،وهي جميع الكواكب التي تخنس، أي: تختفي بالنهار تحت ضوء الشمس، والتي تجري في أفلاكها، وتكنس بالليل، أي: تظهر بالليل في أماكنها، كما تظهر الظباء من كنسها، أي بيوتها. وأقسم أيضا بـ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ أي: أقسم بالليل إذا أقبل أو أدبر ، وأقسم بـ ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي امتد ضوءه فصار نهاراً بيّناً ، فأقسم بكلّ هذه المذكورات على أن القرآن الذي يصف لكم البعث والجزاء حق الوصف، هو قول رسول كريم على ربه وهو جبريل، الذي هو ذو قوة لا يقدر معها إنس ولا جن على انتزاع ما عنده من الوحي ولا على زيادة فيه أو نقص منه [1] .

هذا هو السياق الذي وردت فيه "لفظة "عسعس" التي هي محل الدراسة التطبيقية في هذا المقال .

وأما عن تطبيق الخطوات المنهجية المقترحة للتفسير المقارن على هذه اللفظة فهو كالآتي:

أولا: تحديد الموضوع:

الموضوع الذي اخترته ليكون نموذجا تطبيقيا للمنهج المقترح في كتابة بحث في التفسير المقارن هو: بيان معنى لفظة "عسعس" التي وردت في القرآن الكريم في موضع واحد وهو: سورة التكوير، حيث إن الله تعالى أقسم في هذه السورة: بـ"الليل إذا عسعس"، فاختلف المفسرون اختلافا كبيرا في تحديد المقسم به من الله تعالى، أهو: إقبال الليل أو إدباره أو هما معا ؟، و استدلّ كلّ منهم بأدلّة من القرآن واللغة العربية تحتمل صحّة قوله وترجحه، وهذا ما جعلني أختار هذا الموضوع كتطبيق في هذا المقال، لكثرة المادة التفسيرية فيه وكثرة اختلاف المفسرين في تحديد المقسم به من الله تعالى، ممّا يجعل هذا الموضوع صالحا لتطبيق جميع الخطوات السابقة في الجانب النظري، ولعل هذا البحث يسهم في بيان الراجح في تفسير هذه اللفظة وهذا من المقاصد العلمية ودوافع التأليف .

[1] ينظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير للجزائري (5/ 527)، وهبة الزحيلي، التفسير المنير (30/ 89) .

ثانيا: جمع الأقوال في الآية:

بعد تتبعي لكثير من كتب التفسير وجدت أن الخلاف في تفسير لفظة "عسعس"، يدور على ثلاثة أقوال؛ فمنهم من قال هي بمعنى: أقبل وأدبر معا"، ومنهم من قال هي بمعنى: أقبل، ومنهم من قال هي بمعنى: أدبر، وتفصيل هذه الأقوال هو:

القول الأول: لفظة "عسعس" من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ تطلق على معنى "أقبل وأدبر معا" :

حيث ذهب جمع من المفسرين إلى أن معنى لفظة "عسعس" التي وردت في سورة التكوير هو إقبال الليل وإدباره معا، وبالتالي فإن الله تعالى أقسم بإقبال الليل وإدباره على أن هذا القرآن هو قول رسول كريم وليس شعرا أو سحرا أو كهانة كما زعمه المشركون .

1–نسبة القول: وممن ذهب إلى هذا القول: الزجاج [1] ، والمبرد[2]، عبد القاهر الجرجاني[3]، والراغب الأصفهاني[4]، والرازي [5]، تفسير البيضاوي [6]، والسمين الحلبي [7]، ونظام الدين النيسابوري[8] ، **ومن المعاصرين:** محمد الأمين الهرري[9]، وابن عاشور[10]، ووهبة الزحيلي [11]، وأبو بكر جابر الجزائري[12] ، ود: مساعد الطيار [13] .

قال المبرد:"هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحدٍ، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره"[14] .

وقال الراغب الأصفهاني:" عسعس ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ أي: أقبل وأدبر وذلك في مبدإ الليل ومنتهاه، فالعسعسة والعساس رقة الظلام وذلك في طرفي الليل[15] .

وقال نظام الدين النيسابوري :"ومعنى عسعس: أقبل وأدبر فهو من الأضداد"[16] .

2– أدلة هذا القول: استدل أصحاب هذا القول بعدة أدلة مدارها على اللغة العربية في معانيها وأساليبها، ومجمل هذه الأدلة هي:

---

[1] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه (5/ 292) .
[2] ابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب (20/ 187) .
[3] عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور (2/ 692) .
[4] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: 334) .
[5] الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (31/ 68) .
[6] البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 290) .
[7] السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (3/ 73) .
[8] نظام الدين النيسابوي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (6/ 455) .
[9] محمد الأمين الهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (31/ 184) .
[10] ابن عاشور، التحرير والتنوير (30/ 136) .
[11] وهبة الزحيلي، التفسير المنير (30/ 88) .
[12] أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير (5/ 527) .
[13] تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار (ص: 71) .
[14] ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (20/ 187) .
[15] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: 334) .
[16] النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (6/ 455) .

أولا: لفظة "عسعس" من المشترك اللفظي: حيث وردت هذه اللفظة في لغة العرب بمعنى الإقبال والإدبار معا فهي من الأضداد كما قال أبو حاتم وقطرب[1]، قال صاحب القاموس:" عَسْعَسَ الليلُ: أقبَلَ ظَلاَمُهُ أو أدبَرَ"[2] .

ونقل أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال: العسعسة: ظلمة الليل كله، ويقال إدباره وإقباله. قال أبو العباس: وهذا هو الاختيار، فأقسم الله بإقبال الليل وإدباره [3] .

وانطلاقا من الإطلاقات اللغوية على لفظة "عسعس" قال أصحاب هذا القول: إنه يمكن حمل الآية على المعنيين معا وفي وقت واحد لأنه لا تناقض بينهما لأن المقصود القسم بإقبال الليل في أوله وإدباره في آخره، فهما من قبيل المشترك اللفظي الذي يمكن معه حمل الآية على المعاني جميعها في وقت واحد بغير تضاد، ووجه ذلك قال طنطاوي في تفسيره " العسعسة: **رقة الظلام** وذلك في طرفي النهار، فهو من المشترك المعنوي، وليس من الأضداد، أي: أقبل وأدبر معا"[4] .

ثانيا: موافقته لقاعدة من قواعد التفسير اللغوي وهي: " أن الآية إذا احتملت معنيين لا تعارض بينهما وجب الأخذ بهما جميعا"، وهي تنطبق على هذه الآية، فالخلاف فيها من قبيل خلاف التنوع، وذلك لاختلاف الزمنِ الذي يحمل عليه اللفظ، وهو أولُ الليل وآخرُه .

ثالثا: هذا القول يبرز بلاغة القرآن الكريم، فألفاظه موجزة ومعانيه كثيرة، قال د: مساعد الطيار:" وفي إيثار هذا اللفظ الدالِّ على الحالين معاً ما يُظهر بلاغةَ القرآنِ وإيجازَه في الألفاظ مع اتِّساعِ المعاني، دونَ تعارضٍ بينهما "[5] .

رابعا: إبراز مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى: قال ابن عاشور في تفسيره:"وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما لأنهما من مظاهر القدرة؛ إذ يعقب الظلام الضياء ثم يعقب الضياء الظلام، وهذا إيجاز" [6] .

3-مناقشة أدلة هذا القول: يمكن التعقيب على الأدلة التي استدلّ بها أصحاب هذا القول بما يلي:

أ- قاعدة "ليس كلّ ما صح لغة صح تفسيرا"، فحتى وإن صح إطلاق لفظة "عسعس" على الإقبال والإدبار معا في اللغة العربية، فإن هذا لا يدل على صحته في تفسير الآية، لأن السياق القرآني مقدم على مجرد الإطلاق اللغوي؛ لأن معاني القرآن قد ترد في سياق معيّن فيراد بها معنى خاصا، بدليل أن اللِّحاق الذي جاء بعد هذه الآية وهو قوله "والصبح إذا تنفس" لا يوافقه المعنى اللغوي المذكور، بل الذي يوافقه هو حمل لفظة "عسعس" على معنى: أقبل أو أدبر، فإن حملناها على معنى "أقبل" كانت لفظة "عسعس" مقابلة للفظة "تنفس" بعدها، وإن حملناها على معنى "أدبر" كانت مجاورة للفظة "تنفس" .

ب- الإقبال والإدبار من المعاني المتضادة فلا يمكن أن تحمل لفظة "عسعس" عليهما معا وفي وقت واحد، بل يجب ترجيح أحد المعنيين .

---

[1] ابن منظور، لسان العرب (6/ 139) .

[2] الفيرز آبادي، القاموس المحيط، باب السين فصل العين (ص: 719) .

[3] ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، أبواب المضاعف من حرف العين، باب العين والسين (1/ 62)، وابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 444) .

[4] طنطاوي، التفسير الوسيط (15/ 302) .

[5] مساعد الطيار، تفسير جزء عم (ص: 71) .

[6] ابن عاشور، التحرير والتنوير (30/ 136) .

وهذا الاعتراض يرد عليه بأنه يمكن حمل لفظة "عسعس" على المعنيين" لأن الزمن يختلف فالإقبال في بداية الليل والإدبار في آخره، وهذا مما يزيد في بيان قدرة الله تعالى وعظمته في خلق الليل، ويظهر بلاغة القرآن الكريم، في باب الاختصار في الألفاظ .

ج– إذا نظرنا في نظام القرآن ومعهوده: نجد أن الليل والنهار دائما متقابلين ، ومن ذلك:

–ماجاء في سورة المدثر ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **مقابل** ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، فإدبار الليل قابله إسفار الصبح .

–ما جاء في سورة الليل ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ **مقابل** ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ ، فغشيان الليل قابله جلاء الصبح .

فمن خلال هاتين الآيتين يتبيّن لنا أنّ أفعال الليل والنهار دائما ترد متقابلة في القرآن الكريم، لذلك فلا يمكن حمل عسعسة الليل على إقبال الليل وإدباره معا موافقة لمعهود القرآن الكريم، بل يحمل على التقابل .

القول الثاني: أن لفظة "عسعس" من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، تطلق على معنى "أقبل" :

وهذا قول جماعة من المفسرين وعليه يكون الله تعالى قد قسم بآية إقبال الليل على أن هذا القرآن هو قول رسول كريم وليس شعرا أو سحرا أو كهانة كما زعم ذلك المشركون .

1–نسبة هذا القول: وممن ذهب إلى هذا القول: ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جبير[1] .

وقد **رجحه غير واحد من المفسرين منهم**: الواحدي [2] وأبو حيان[3]، وابن كثير[4]، والسمين الحلبي[5]، و أبو حفص سراج الدين ابن عادل[6]، و البقاعي[7]، **ومن المعاصرين**: سيد طنطاوي[8]، وسيد قطب[9]، وسعيد حوى[10]، وفيصل آل مبارك[11]، وابن وابن عثيمين[12] وغيرهم .

قال الحافظ ابن كثير بعد سرده للأقوال في الآية :" وعندي أن المراد بقوله: {عسعس} إذا أقبل"[13] .

وقال البقاعي :"﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ ،أي: أقبل ظلامه، واعتكر سواده وقتامه"[14] .

---

[1] ينظر: الطبري، جامع البيان، (159/24)، والقرطبي، أحكام القرآن (227/19) و الماوردي ، النكت والعيون (217/6) .

[2] الواحدي، الوجيز (ص: 1178) .

[3] أبو حيان، البحر المحيط في التفسير (10/ 418) .

[4] تفسير ابن كثير (8/ 337) .

[5] السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (10/ 706) .

[6] ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (20/ 187) .

[7] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (21/ 286) .

[8] طنطاوي، التفسير الوسيط (15/ 302) .

[9] سيد قطب، في ظلال القرآن (7/ 472) .

[10] سعيد حوى، الأساس في التفسير (11/ 6394) .

[11] فيصل آل المبارك، توفيق الرحمن في دروس القرآن (4/ 445) .

[12] تفسير العثيمين، جزء عم (ص: 76) .

[13] تفسير ابن كثير (8/ 337) .

[14] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (21/ 286) .

وقال ابن عثيمين :" لكن الذي يظهر أن معناها «أقبل» ليوافق أو ليطابق ما بعده من القسم. وهو قوله﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله"[1] .

2– أدلة هذا القول: استدل أصحاب هذا القول بأدلة متنوعة تدور بين آيات من القرآن الكريم، والسياق القرآني و معاني كلمات اللغة العربية، ومجمل هذه الأدلة ما يلي:

أ– من القرآن الكريم: استدلوا بقاعدة "القول الذي تؤيده آيات من القرآن الكريم مقدم على غيره"، وقالوا بأن الله تعالى أقسم في مواضع من كتابه بإقبال الليل مما يدل على عظم هذه الآية، والاستدلال بالمعاني التي تكررت في القرآن أولى من غيرها، ومن تلك المواضع التي أقسم الله فيها بإقبال الليل قوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ **الليل:** ١ - ٢ ، وقوله﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ **الضحى:** ١ - ٢، كما ذكر الله تعالى في كتابه آية سكن الليل وهو إقباله بظلامه [2]، وعليه فيحمل قوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ على إقبال الليل لتكرر هذه الآية في القرآن الكريم .

ثانيا: السياق القرآني: وذلك في اللحاق الذي بعد آية ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ وهو قوله تعالى﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، فإقبال الصبح بضيائه وشروقه، يقابله: إقبال الليل بظلامه، فيكون المعنى: والليل إذا أقبل بظلامه والصبح إذا أشرق بنوره من باب التقابل فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله[3] .

ثالثا: اللغة العربية: فلفظة "عسعس" تطلق عند العرب بمعنى: أقبل، لأنها مأخوذة من "عسّ" يقال :عسّ الأمير، أي: طاف ليلاً متفقداً شؤون الرعية، وبه سمِّي العَسَس الذي يطوف للسُّلطان باللَّيل، ويدل عليه قول الشاعر:

عَسْعَسَ حتَّى لو يَشاءُ إِدَّنَا ... كان لَهُ مِن ضَوْئِه مَقْبِسُ [4] .

جاء في المعجم الوسيط، :"(**عسعس**) الليل أقبل بظلامه والذئب طاف بالليل والسحاب دنا من الأرض ليلا "[5] .

وعليه فسر مجاهد قوله تعالى: " والليل إذا عسعس" بقول: هو إقباله[6] .

3–مناقشة أدلة هذا القول: يمكن التعقيب على الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول بما يلي:

أ– استدلالهم بقاعدة "القول الذي تؤيده آيات من القرآن الكريم مقدم على غيره"، فهذه ليست قاعدة مطلقة يستدل بها على إطلاقها، بل إنها مقيدة بقيود لم تتوفر في هذا الموضع، لذلك فلا يصح الاستدلال بها هنا، لأنها معارضة بآيات أخرى أقسم الله فيها بالليل حال إدباره كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ فكيف يستدل ببعضها وتترك الأخرى .

---

[1] تفسير العثيمين: جزء عم (ص: 76) .

[2] تفسير ابن كثير (8/ 338) .

[3] ينظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير (10/ 418)، وابن عادل، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (10/ 706)، تفسير العثيمين: جزء عم (ص: 76) .

[4] الزبيدي، تاج العروس (16/ 258) .

[5] إبراهيم الزيات وآخرون، المعجم الوسيط (2/ 600) .

[6] الأزهري، تهذيب اللغة (1/ 9) .

ب– المناسب للسياق أن نقول بالمجاورة لا بالمقابلة، فإشراق الصبح يناسبه ما يأتي قبله وهو إدبار الليل لا إقباله، لذلك فالأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار ، فإنه عقيبه من غير فصل، وهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار لأن بينهما زمناً طويلاً . فتفسير الآية بأنها في انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه بغير فصل أبلغ .

ج– يرد على الاستدلال بالمعنى اللغوي للفظة "عسعس" وأنها تطلق على معنى "أقبل" بقاعدة "ليس كلّ ما صح لغة صح تفسيرا"، فهذه اللفظة من المشترك اللفظي، إذ أنها تطلق أيضا على معنى "أدبر"، لذلك لا بد من دليل قوي يدلّ على حصرها في معنى الإقبال دون غيره .

القول الثالث: لفظة "عسعس" من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ تطلق على معنى "أدبر" :

حيث ذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى لفظة "عسعس" هو: أدبر، وبالتالي فإن الله تعالى أقسم بإدبار الليل وانصرامه على أن هذا القرآن هو قول رسول كريم وليس شعرا أو سحرا أو كهانة كما زعمه المشركون .

1–نسبة القول: ذهب إلى هذا القول جمهور المفسرين ، ومنهم: ابن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وزيد بن أسلم[1]، بل إن هذا القول من كثرة من قال به ادعى عليه الفراء الإجماع فقال:" أجمع المفسرون على أن معنى "عسعس: أدبر"[2] . **و قد رجح هذا القول كثير من المفسرين ومنهم :**

الإمام الطبري[3]، وابن جزي[4]، ومكي بن ابي طالب القيسي[5] ، والزمخشري[6]، وابن عطية[7]، والقرطبي[8]، والشوكاني[9]، وصديق وصديق حسن خان[10]، والقاسمي[11]، والألوسي[12]، **ومن المعاصرين:** ومحمد المكي الناصري[13]، والمراغي[14]، والسعدي[15] .

قال الطبري:" وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر"[16] .

وقال الواحدي :" وأكثر المفسرين قالوا في: "عسعس" أنه: ولى، وذهب، وأدبر" [1].

---

[1] ينظر: الطبري، جامع البيان (24/ 256)، والواحدي، تفسير البسيط (1/586) .

[2] الشوكاني، فتح القدير (5/ 472)

[3] الطبري، جامع البيان (24/ 256) .

[4] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (2/ 456) .

[5] مكي القيسي، الهداية الى بلوغ النهاية (12/ 8090) .

[6] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (7/ 241) .

[7] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 444) .

[8] القرطبي، أحكام القرآن (19/ 238) .

[9] الشوكاني، فتح القدير (5/ 472) .

[10] صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن (15/ 104)

[11] القاسمي، محاسن التأويل (9/ 418) .

[12] إسماعيل حقي، روح البيان (10/ 350) .

[13] محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير (6/ 386) .

[14] تفسير المراغي (30/ 59) .

[15] السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص: 913) .

[16] الطبري، جامع البيان (24/ 256) .

2– أدلة هذا القول: استدل أصحاب هذا القول بأدلة متنوعة تدور بين آيات من القرآن الكريم، والسياق القرآني ومعاني اللغة العربية، وبعض الآثار والتعليلات والاستنباطات، وهي كالآتي:

أ– من القرآن:

1– حيث استدل أصحاب هذا القول بقاعدة "القول الذي تؤيده آيات من القرآن الكريم مقدم على غيره"، فقالوا بأن الله تعالى أقسم في مواضع من كتابه بإدبار الليل صراحة مثل قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾ المدثر: ٣٣ - ٣٤ ، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، فالأرجح حمل القسم في الآية على إدبار الليل لأنه مصرّح به [2] .

2– قاعدة "معهود القرآن الكريم مقدم على غيره"، وبيان ذلك: أننا إذا نظرنا في نظام القرآن ومعهوده: نجد أن الليل والنهار يرد ذكرهما في القرآن دائما بوصفين متقابلين، ومن ذلك:

–ماجاء في سورة المدثر جاء ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ ﴾ **مقابل** ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ ﴾ ، فإدبار الليل قابله إسفار الصبح .

–ما جاء في سورة الليل ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾ **مقابل** ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾، فغشيان الليل قابله جلاء الصبح .

فمن خلال هاتين الآيتين يتبيّن لنا أن أفعال الليل والنهار دائما ترد متقابلة في القرآن الكريم، ويبقي موضع فيه خلاف وهو: في سورة التكوير ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير: ١٧ - ١٨ ، فيحمل على التقابل جريا على معهود القرآن الكريم، فيكون المعنى: إدبار الليل وإسفار الصبح؛ بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعهد القسم في القرآن الكريم .

ب– السياق القرآني: وذلك في اللحاق الذي بعد آية ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ وهو قوله تعالى ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، فإن الله تعالى ذكر في هذا اللحاق تنفس الصبح وهو ضياؤه وشروقه، والمناسب له أن يكون معنى "عسعس" أدبر ، حتى يكون هناك تعاقب من باب المجاورة، لأن إقبال الصبح يكون بإدبار الليل، فكأنهما حالان متصلتان، فدلّ ذلك على أن الله تعالى أقسم بالليل مدبرًا، وبالنهار مقبلا [3].

ج– اللغة العربية: حيث إن لفظة "عسعس" تطلق على معنى: أدبر في لغة العرب، فيقال "عسعس الليل" إذا أدبر، ومنه قول الزِّبرقان: وردتُ بأفراسِ عتاقٍ وفتيةٍ ... فوارِطَ في أعجازِ ليل معسعسِ . أي مدبر [4] .

ومنه قول ابن السّكيت : حتّى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَسَّا وانْجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا [5] .

وقد ذكر ابن فارس أن "عسعس" بهذا المعنى مقلوبة من "سَعْسَع" [6] .

---

[1] الواحدي، التفسير البسيط (23/ 268) .

[2] ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن (ص: 119) .

[3] ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 444)، اسماعيل حقي ، روح البيان (10/ 350) .

[4] الأزهري، تهذيب اللغة، أبواب المضاعف من حرف العين، باب العين والسين (1/ 62) .

[5] ابن سيده، المخصص (كتاب الأضداد) (4/ 178) .

[6] ابن فارس، مقاييس اللغة ،كتاب العين باب العين وما بعده من المضاعف والمطابق والأصم(عس) (4/ 35) .

د– الآثار: وهي آثار كثيرة عن الصحابة تدل على تفسيرهم للفظة "عسعس" بمعنى: أدبر، ومنها أثر عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي ﷺ، حين ثوب المثوب بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ؟ هذا حين أدبر[1] .

هـ– التعليلات والاستنباطات: ومن أبرزها:

1– أن آخر الليل وهو وقت إدباره أفضل من أوله وأعظم عند الله مكانة، ولذلك فإن الله أقسم به[2] .

2– أن هذا قول جمهور المفسرين ، فيقدم على ما خالفه، بل ادُّعِيَ عليه الإجماع فقال الفراء: "أجمع المفسرون على أن معنى «عسعس» : أدبر، حكاه الجوهري[3] .

3–مناقشة أدلة هذا القول: يمكن التعقيب على الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول بما يلي:

أ– قاعدة "القول الذي تؤيده آيات من القرآن الكريم مقدم على غيره" التي استدل بها أصحاب هذا القول لا يصح الاستدلال بها في هذا الموضع، لأنه وردت آيات أخرى ذكر فيها الليل حال إقباله، كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ، فكيف نستدل بالآية التي ذكرت الليل حال إدباره ونترك آيات ذكرت الليل حال إقباله وإظلامه .

ب– المناسب للسياق أن يقال إنه أتى من باب المقابلة لا المجاورة، فالقسم بإسفار الصبح وهو ظهوره، يناسبه القسم بظلمة الليل وهي إقباله بظلامه .

ج– يرد على الاستدلال بالمعنى اللغوي للفظة "عسعس" وأنها تطلق على معنى "أدبر" بقاعدة "ليس كلّ ما صح لغة صح تفسيرا"، فهذه اللفظة من المشترك اللفظي، إذ أنها تطلق أيضا على معنى "أقبل" ، لذلك لا بد من دليل قوي يدلّ على حصرها في معنى الإقبال دون غيره .

د– نقد الآثار : الآثار التي استدل بها من قال "عسعس" بمعنى: أدبر، هي: أقوال لأصحابها تعبّر عن اختيارهم في معنى تلك اللفظة، وتحتمل الصواب والخطأ كغيرها من الأقوال إذ هي ليست أحاديث نبوية مرفوعة، لأنه يقابلها أقوال أخرى للصحابة رضي الله عنهم أجمعين تخالف تلك الآثار، لذلك فإننا نحتاج لمرجّح خارجي .

هـ– أما تلك التعليلات التي علّل بها بعض من رجح هذا القول فهي مجرد استنباط واستئناس حاول أصحابها من خلالها تقوية هذا القول لكنها ليست أدلة قوية في محل النزاع حتى ننازع بها أدلة الأقوال الأخرى، لأن فضل وقت إدبار الليل إنما ورد في التعبد لله وقيام الليل وليس متعلّقا بمعجزة حسية يراها الناس بأعينهم حتى يرد القسم بها .

و– الإجماع المنقول عن الإمام الفراء، هو إجماع منقوض بالخلاف الذي ذكرناه سابقا في الآية، لذلك لا يصح الاستدلال به لعدم ثبوته ولو ثبت لوجب القول به ، وغاية ما فيه أنه قول جمهور المفسرين، وهو يستأنس به إذا تكافأت الأدلة في الأقوال ولم يوجد مرجّح قوي .

---

[1] تفسير ابن كثير (8/ 337) .

[2] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (2/ 456) .

[3] القرطبي، أحكام القرآن (19/ 238) .

ثالثا: تحرير محل النزاع:

المسألة الدقيقة التي اختلف فيها المفسرون في الآية هي بيان المقصود بلفظة "عسعس" في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ ، فمن المفسرين من ذهب إلى أنها تدل على بداية ظلمة الليل في أوله، فهي بمعنى: والليل إذا أقبل، ومنهم من ذهب إلى أنها تدل على نهاية ظلمة الليل في آخر، فهي بمعنى: والليل إذا أدبر، ومنهم من ذهب إلى أنها تدل على بداية ظلمة الليل في أوله ونهاية ظلمة الليل في آخره، فهي بمعنى: أقبل وأدبر معا .

رابعا: بيان ثمرة الخلاف:

الثمرة التي ترتبت على اختلاف المفسرين في تحديد معنى لفظة عسعس من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، هي بيان ماهية الشيء الذي أقسم الله به في هذه الآية، أهي إقبال الليل أو إدباره أو هما معا؟ :

-فمن ذهب إلى أن معنى "عسعس" هو: أقبل، قال: بأن الله أقسم بالليل حال إقباله .

-ومن ذهب إلى أن معنى "عسعس" هو: أدبر، قال: بأن الله أقسم بالليل حال إدباره .

-ومن ذهب إلى أن معنى "عسعس" هو: أقبل وأدبر معا، قال: بأن الله أقسم بالليل في حالي إقباله وإدباره معا .

خامسا: سبب الخلاف:

بعد النظر والتأمل في أقوال المفسرين والأدلة التي استدلوا بها في معنى "عسعس" ، ظهر لي أن هناك عدة أسباب أدت إلى اختلاف المفسرين في تفسير لفظة "عسعس" في سورة التكوير ، ومجمل هذه الأسباب هي:

1- اللغة العربية، حيث إن لفظة "عسعس" من المشترك اللفظي الذي يطلق على أكثر من معنى، فقد وردت في لغة العرب بمعنى: أقبل، وبمعنى: أدبر، فمن المفسرين من رجح أحد هذين المعنيين وفسر الآية به، كما رأينا في القولين الثاني والثالث؛ فالجمهور قالوا: هي بمعنى: أدبر، وقال غيرهم: أقبل، ومن المفسرين من ذهب إلى حمل اللفظة على المعنيين معا: أقبل وأدبر، لاختلاف الزمنِ المقسم به، وهو أولُ الليل وآخرُه، كما رأينا في القول الأول، ومن هنا نتجت ثلاثة أقوال في الآية .

2- القرآن الكريم : وذلك في تطبيق قاعدة " القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على غيره" ، حيث إنه وردت في القرآن الكريم آيات قرآنية تتحدث عن آية الليل، ففي بعضها أقسم الله بإقبال الليل وظلامه مثل قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ، وفي آيات أخرى أقسم بإدبار الليل وذهابه كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ فمن هنا اختلف المفسرون في تفسيرهم للآية، فاستند بعضهم إلى الآيات التي جاء فيها القسم بإقبال الليل وفسروا بها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ ، واستند بعضهم إلى الآيات التي جاء فيها القسم بإدبار الليل وفسروا بها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾.

3- السياق القرآني: وذلك في تطبيق قاعدة "القول الذي يؤيده السياق القرآني مقدم على غيره"، لأنه ورد مباشرة بعد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ قوله ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، والمقصود به إشراق الصبح وضياؤه بالاتفاق، فاختلف المفسرون في المعنى المناسب الذي يُظهِر الإعجاز في الآية التي قبله وهي محل النزاع ، فقال بعضهم المناسب لها هو المقابلة: فنقول: إن الله أقسم بالليل حال إقباله وبالنهار حال إقباله، وعليه فلفظة "عسعس" تكون بمعنى: أقبل، وذهب غيرهم من المفسرين إلى أن

المناسب لها هو المجاورة، فنقول: إن الله أقسم بالليل حال إدباره وبالنهار حال إقباله لأنهما متجاورين في الزمن يذهب الليل فيطلع الصبح، وعليه فلفظة "عسعس" تكون بمعنى: أدبر .

سادسا: بيان القول الراجح:

بعد هذه الجولة العلمية في بيان ما ذكره المفسرون في تفسير لفظة "عسعس" ظهر لي – والله أعلم- مايلي :

أن القول الأول وهو: حمل لفظة "عسعس" على معنى الإقبال والإدبار، هو قول قوي لأن من قواعد الترجيح المقررة "أنه إذا كان هناك أكثر من قول في الآية وأمكن الجمع بينها فإن الآية تحمل على جميع الأقوال" وهذه القاعدة يمكن تطبيقها في هذا الموضع، لأن الإقبال و الإدبار في معنى "عسعس" وإن كانا متضادين إلا أنه يمكن حمل الآية عليهما معا لأن الزمن يختلف، فإقبال الليل يكون في أوله وإدباره يكون في آخره .

إلا أنه يعترض على هذا القول: السياق الذي يرد فيه القسم بالليل، فإننا إذا استقرأنا آيات القسم بالليل في القرآن الكريم، وجدناها دائما متقابلة مع النهار، ومن القواعد المقررة في الترجيح "أن القول الذي يؤيده معهود استعمال القرآن مقدم على غيره"، وبيان ذلك أنه ورد القسم بالليل في القرآن في مواضع هي:

-قوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ ﴾ **مقابل** ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ في سورة المدثر. فهما متقابلان .

-قوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ ﴾ **مقابل** ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ في سورة الليل. وهما متقابلان .

فالملاحظ أن معهود القرآن الكريم هو التقابل في الآيات الواردة في هذا المعنى:

فالفعل (أدبر) يقابله الفعل (أسفر) و الفعل (يغشى) يقابله الفعل (تجلى) .

ويبقى محل النزاع وهو قوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ في سورة التكوير، فيحمل أيضا على معنى: أدبر ليتقابل مع (تنفس) . فيكون الفعل (عسعس) يقابل الفعل (تنفس)، وهذا ما يرجح حمله على معنى: أدبر، وذلك ليقابل معنى: أقبل الذي جاء في قوله بعده "والصبح إذا تنفس"، فهما فعلان متقابلين في المعنى، متجاورين في الزمن .

-إدبار االليل يقابله إقبال الصبح في المعنى .

-إدبار الليل يجاوره إقبال الصبح في الزمن .

فيظهر لي من هذا –والله أعلم- هذا رجحان القول الأخير وهو أن معنى "عسعس" هو أدبر، فيكون الله تعالى قد أقسم بالليل حال إدباره، وذلك للأدلة التالية:

1-معهود القرآن ، فدائما يقسم الله تعالى بالليل والنهار في حالين متقابلين كما سبق بيانه، ومن قواعد الترجيح "أن القول الذي يؤيده معهود استعمال القرآن مقدم على غيره" .

2- السياق القرآني، فورود القسم بالصبح حال تنفسه يناسبه القسم بالليل حال إدباره لأنهما متجاورين زمنا يذهب الليل فيطلع الصبح، ومن قواعد الترجيح "القول الذي يؤيده السياق القرآني مقدم على غيره" .

3-أنه قول جمهور المفسرين وادعى الفراء عليه الإجماع –كما سبق- وهذا ما يجعل النفس تطمئن إليه .

4-قلة الاعتراضات القوية عليه، وإذا كان أقل اعتراضا فإنه يقدم على غيره ما لم يرد نص يفصل في محل النزاع .

خاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية مع منهجية البحث في التفسير المقارن، توصلت إلى النتائج الآتية:

أولا: التفسير المقارن له منهج دقيق كون موضوعه هو التعامل مع الأقوال التفسيرية والمحاكمة بينها، ولذلك ينبغي للباحث أن يكون متثبّتا مما يكتبه أو ينسبه أو يناقشه .

ثانيا: لا يمكن للباحث أن يلج في بحث مقارنة بين المفسرين إلا إذا كان ملمّا بعدة علوم لها علاقة بالدراسات القرآنية .

ثالثا: أهم الخطوات التي يتبعها الباحث في التفسير المقارن هي:

1-تحديد الموضوع، 2- وضع خطة محكمة، 3- جمع الأقوال التي ذُكرت في الآية، 4- تحليل هذه الأقوال، 5- تحرير محل النزاع، 6- بيان ثمرة الخلاف، 7- بيان سبب الخلاف في الآية، 8- مناقشة الأقوال التي سبق عرضها مناقشة علمية، 9- بيان القول الراجح بالأدلة .

رابعا: لفظة "عسعس" من الألفاظ التي اختلف فيها المفسرون اختلافا كبيرا، وقد صح تطبيق المنهجية العلمية للتفسير المقارن عليها، وذلك لتنازع الأدلة التي تبين المعنى الراجح فيها .

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: التفسير وعلوم القرآن:

- مصحف المدينة الإلكتروني برواية حفص عن عاصم .
- أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، سنة: 1420 هـ .
- إسماعيل حقي، روح البيان، دار الفكر – بيروت .
- أبو جابر بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط: 5، سنة: 1424هـ/2003م .
- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، سنة: 1418 هـ .
- ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط: 1 ، سنة: 1416 هـ .
- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط: 1، سنة: 1412 هـ .
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط: 1، سنة: 1376 هـ / 1957 م .
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت: عبد الرحمن بن معلا اللّويحق، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ/2000 م .

السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط: 1، سنة: 1417 هـ / 1996 م .

سيد قطب في ظلال القرآن،، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط:17، سنة:1412هـ .

الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: 1، سنة: 1414 هـ .

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1،سنة: 1420 هـ/2000 م .

ابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، ت: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط : 1، سنة: 1419 هـ /1998 م .

محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسيّة للنشر، تونس، سنة: 1984 هـ .

ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 1 ، سنة: 1422 هـ .

أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: 2، سنة: 1384هـ /1964 م .

ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم ، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2: سنة: 1420هـ/ 1999 م .

الماوردي، النكت والعيون، ت: ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان .

محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط: 1، سنة: 1405 هـ/1985 م .

نظام الدين النيسابوي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، ط: 1 ، سنة: 1416 هـ .

الواحدي، التفسير البسيط، ت: مجموع رسائل دكتوراه، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: 1، سنة: 1430 هـ .

وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط : 2 ، سنة: 1418 هـ .

ثانيا: الحديث النبوي:

صحيح البخاري، تأليف: محمد بن إسماعيل البخاري، ت: د مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، ط: 3، سنة: 1407هـ /1987م .

الطبراني، المعجم الكبير، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة العلوم والحكم – الموصل، ط: 2 ، سنة: 1404 – 1983م .

ثالثا: المعاجم اللغوية:

إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة .

الأزهري ، تهذيب اللغة، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، سنة: 2001م .

أبو بكر ابن دريد، جمهرة اللغة جمهرة اللغة، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط: 1، سنة: 1987م .

ابن سيده، المخصص، ت: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، سنة: 1417هـ/ 1996م .

ابن فارس، مقاييس اللغة ، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، سنة : 1399هـ /1979م .

مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ت: مجموعة من المحققين .

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط: 3 ، سنة: 1414 هـ .

رابعا: الدراسات والبحوث:

إبراهيم المشني، التفسير المقارن دراسة تأصيلية، مجلة: الشريعة والقانون –كلية الشريعة الجامعة الأردنية–، عدد 26، سنة: 1427 هـ .

جهاد محمد نصيرات، التفسير المقارن –إشكالية المفهوم–، مجلة: مؤتة للبحوث الإسلامية، سلسلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، العدد الأول، سنة: 2015 م .

حسين بن علي الحربي، مختصر قواعد الترجيح عند المفسرين، دار ابن الجوزي، ط:1 ، سنة: 1429هـ .

روضة عبد الكريم فرعون، التفسير المقارن بين النظرية والتطبيق، دار النفائس –الأردن–، ط:1، سنة: 2010م.

طاهر محمود يعقوب، أسباب الخطأ في التفسير –دراسة تأصيلية–، دار ابن الجوزي، ط: 1، سنة: 1425هـ .

عبد القادر الحسين، معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، دار الغوثاني –دمشق سورية–،ط:1، سنة: 1428هـ/2008م .